

كلام عن الوحدة الوطنية

والتغيير والإصلاح في ظل انتظار الاجتياح

بينما ينتظر الناس في قطاع غزة الاجتياح الإسرائيلي، ويستعد كل فريق منهم لمواجهة بطريقته الخاصة، ابتداء من ربة البيت التي تحرص على تزويد بيتها بالمؤن الاحتياطية كي لا يجوع الأطفال أثناء منع التجول، وانتهاء بالفتيان الذين يجددون عند صلواتهم التوديعية عهد الفداء والشهادة أمام الله وأطياف أصدقائهم وزملائهم وأقاربهم الذين سبقوهم إلى العمليات الاستشهادية.. بينما يعيش قطاع غزة أجواء الترقب وخيالات المعارك والمواجهات القادمة التي تجدد ذكريات الإغارات والمذابح القديمة في الخمسينيات والستينيات وذكريات الاجتياحات والمذابح السابقة عام ١٩٥٦ و عام ١٩٦٧، يتابع المرء بكثير من القلق والتحسب هبوب رياح السموم التي عكرت صفو مناخ الوحدة الوطنية مؤخرا، والتي هبت من واشنطن، وبدأت أصداؤها تتوالى بموضوع جرادات والشوبكي ورفاقهما، ثم تفاقم فعلها وأحدثت أثرا محبطا ومخيبا بصور التصريحات الفلسطينية عن الإرهاب الفلسطيني!

والوحدة الوطنية الفلسطينية ليست من الهشاشة على كل حال بحيث يقع الجميع سريعا في شرك الفتنة الكبرى والحرب الأهلية. فلدى الفلسطينيين من الوعي والتجربة ما ليس لدى الكثيرين. والأهم من هذا أن الفلسطينيين شعب صغير، وأن الفصائل والمنظمات المختلفة اغترفت من العائلات ذاتها ومن الحارات والأحياء والقرى والبلدات والمدن ذاتها، فكان طبيعيا بالتالي أن يوجد في الأسرة الواحدة إخوة ذوو تبعيات وانتماءات تنظيمية مختلفة. وبناء على هذا فإن أية قسمة للساحة الفلسطينية تصل إلى مرحلة كسر العظم هي جناية من أشنع الجنايات الوطنية، لأنها أخطر كثيرا من الخلافات والمصادمات السياسية إذ من شأنها أن تطلب من الشقيق أن يسجن شقيقه ومن ابن العم أن يقتل ابن عمه. ومثل هذه الحرب غير مقبولة بطبيعة الحال. ومن شأن المضي فيها توسيع الشروخ الأخرى، بين الوافدين والمقيمين وبين الحاكمين والمحكومين.. إلخ.. ولا يتحمس للقسمة ولا يبالي بإحداث الشروخ إلا ضيق الأفق سياسيا أو الفاسدون خلقيا أو المشبهوهون وطنيا. وهؤلاء قد ينجحون بعض الوقت في زيادة تعاسة الآباء والأمهات الفلسطينيين وفي استتارة الأحقاد الدفينة، إلا أن رابطة المحبة الفلسطينية ووحدة الأسرة الفلسطينية التي يرجع لها الفضل في التغلب على نكبة ١٩٤٨ سوف تهزم حتما هذه الأنماط المفتعلة من العلاقات والمسلكيات التي يريدها لنا الذين يريدون فناءنا.

ما هو الإرهاب الفلسطيني:

كلما تحدثنا عن رابطة المحبة الفلسطينية وعن وحدة الأسرة الفلسطينية ظن البعض أننا نتكلم شعرا. ولكنها حقيقة الحقائق ونهاية المطاف. وبفضل الآباء والأمهات وبفضل أجيال من معلمي المدارس الفلسطينيين أكثر من أي شيء آخر، أمكن الحفاظ على الأواصر التي تجمع كيان المجتمع وروابطه العميقة وخصائص شخصيته ومستودع تراثه الكفاحي وتجربته النضالية منذ النكبة حتى اليوم.

الوحدة الوطنية الفلسطينية قوية للأسباب التي تقدم ذكرها. وهي قوية بفضل الوعي الذي أبداه ويبدئه أولئك الذين مارسوا ضبط النفس أمام الجهالات التي صدرت عن آخرين.

غير أن الهجمة الأخيرة عارمة. والمحاولات التي فشلت من قبل في إشعال حرب الإخوة ما زالت تصر على إثارة ناجحة لها. وبوش مستمر في المحاولات التي يؤزها شارون واللوبي الصهيوني في أمريكا. فهو يعلن عن استحسانه التصريح الفلسطيني عن مقاومة الإرهاب ولا ينسى أن يقول ما معناه إنه يريد للأفعال أن تطابق الأقوال. أي أن ثمن رضاه هو تقطيع أرحام الأسرة الفلسطينية وتمزيق أواصرها على طريق ما يدعونه محاربة الإرهاب. وما هو الإرهاب الفلسطيني؟ أهو مناداة الفلسطينيين بحقهم في وطنهم؟ أهو ثبات أهل البلاد العرب الموجودين في الضفة والقطاع؟ أهو المقاومة المسلحة قبل عام ١٩٤٨ أم قبل عام ١٩٦٧ أم قبل عام ١٩٩٤ أم قبل عام ٢٠٠٠؟ أهو عمليات التفجير داخل الخط الأخضر أم داخل المستعمرات القائمة وسط سكان الضفة والقطاع؟

من الواضح أن الأمريكيين والإسرائيليين معا يستخدمون كلمة الإرهاب استخداما يوميا ليدمغوا أولئك

الذين وضعوهم قسريا في قائمة الدول الإرهابية والمارقة بتهمة تجيز عقابهم الجماعي والتكثير بهم وتدميرهم.

الحكم والمعارضة سواء:

وإذا كان الشيخ أحمد ياسين يقول على شاشات التلفزيون إن حركة حماس سبق لها خلال فترة من الفترات أن جمدت العمليات الاستشهادية في داخل أراضي عام ١٩٤٨ لفترة محددة، إلا أن الحكومة الإسرائيلية لم تتوقف من ناحيتها آنذاك عن قتل المدنيين الفلسطينيين، فإن ذلك يحمل في طياته مغزى الفهم الدفاعي لطبيعة عمل المقاومة المسلحة في هذا الزمان، حتى لو اتخذت مظهرا تفجيريا عنيفا. ويحمل في الوقت نفسه معنى استعداد حماس من حيث المبدأ للتقيد بالتوجه الذي تركز إليه السلطة الوطنية وتبرزه التزاما على الجميع.

ونضيف أيضا إن أجهزة السلطة الوطنية الفلسطينية سبق لها أن قامت في مقبيل عهدها باعتقال عناصر من التيارات الدينية وغيرها لفرض التزامات أو سلو على الجميع. وأذاك أصبنا نحن أعضاء المجلس التشريعي المنتخبين حديثا بأول الخيبات والإحراجات أمام الجمهور الذي هرع ليطلب منا التدخل من أجل إخلاء سبيل الموقوفين دونما لائحة اتهام ولا مدة توقيف محددة.

وخلاصة القول: إن الجانب الفلسطيني بشقيه الحكم والمعارضة نزل عند حد الاتفاقات المعقودة، ولم يبادر إلى خرقها، بل وبادر إلى دفع ثمنها الفادح، ولكنه لم يلق من الجانب الإسرائيلي بالمقابل إلا التكرار لأبسط التزامات الاتفاق، وذلك لسبب إسرائيلي محض، هو وقوع الحياة السياسية الإسرائيلية تحت نفوذ الليكود واليمين المكون من أتباع الحاخامات ورفاق سلاح الجنرالات الذين نزلوا إلى حومة قيادة السياسة بعد قيادة الحرب. وهؤلاء فرضوا نفوذهم ومزايداتهم على حزب العمل، وجردوه من طابعه الخاص في النظر والتنفيذ. ثم ما لبثوا أن استولوا على الحكم جملة وتفصيلا وأصبح مهم التنصل من اتفاق أو سلو بالتدريج، دون أن يضبطهم أحد متلبسين بفقدان الذريعة المصطنعة الكاذبة. وهم إذا التمسوا الذرائع الكاذبة فلأجل أن يضلوا غير الأمريكيين أما الأمريكيون فكانوا على استعداد ليلبغوا الزلط من أجلهم على كل حال.

صك الحرمان الأمريكي:

عندما يوزع الأمريكيون التبعات والتهديدات يتناسون هذا تماما. ويصرون على التعامل مع قضيتنا ومع قيادتنا ومع شعبنا على أسوأ وجه. إن تينيت القادم إلينا هو الذي قال للرئيس ياسر عرفات متوعدا أثناء كامب ديفيد إن منطقة الشرق الأوسط بشعوبها وحدودها قابلة للتغيير، وهو الذي رد على مطلب شارون الملح بضرورة ترحيل عرفات عن البلاد بقوله: ما زال أمام عرفات دور ليؤديه. ورئيسه بوش هو الذي تذرع لرفض الطلب ذاته بالقول لشارون: عرفات يكون أخطر إذا كان في الخارج. وفي كل يوم يلعب الرئيس الأمريكي وأعوانه لعبة الجزرة والسوط مع القيادة الفلسطينية.

وأخيرا، وكما حدث في تاريخ المنطقة أكثر من مرة، يريد الأمريكيون دون أدنى حرج أو محافظة على المظاهر أن يحددوا لنا نظام حكمنا وأشخاص المسؤولين في إطار هذا النظام. فإما أن نوافق على ما يملونه علينا أو يصدرنا بحقنا صك حرمان يتركنا في الصقيع أو يقضي علينا بالموت والترحيل.

لقد ركبوا موجة المطالبة بالإصلاح والتغيير وراحوا يحددون أسماء الأشخاص المناسبين من وجهة نظرهم. ومع أنني من أوائل المطالبين بالإصلاح والتغيير، وذلك ما تشهد به مداخلاتنا المدونة في محاضر جلسات المجلس منذ يوم الرابع من نيسان عام ١٩٩٦، فإنني لا أصدق أبدا أن أولئك الذين حركوا انقلاب الجنرالات على الحكومة المنتخبة في تركيا والذين منحوا الضابط المنقلب على رئيسه في باكستان برويز مشرف سمة دخول إلى عالم الرؤساء المعترف بشرعية ديمقراطية لهم عبر انتخابات مزيفة، سوف يهتمون بالإصلاحات لوجه الحق والديمقراطية، بل ودون أن يجعلوا من الحكم مجرد واجهة لهم.

الانتقال للبيت الجديد:

في يوم تلاوة البيان الوزاري من قبل الرئيس ياسر عرفات قلت بالنص والحرف: ((سأتكلم فيما خلا منه البيان الوزاري، وهو مع ذلك جزء من أحاديث الشارع الفلسطيني.

((نقطة أولى: نعلم جميعا أن عامين قد مر على نقل السلطة إلى الجانب الفلسطيني. وعندما وصل القادة العائدون إلى الوطن كانت هناك هياكل إدارية ودوائر وهيئات عامة موروثية، وقد بادرت السلطة باستحداث الوزارات والإدارات والهياكل الإدارية في الضفة والقطاع.

((عندما كان الناس يسألوننا في جولاتنا الجماهيرية أيام الانتخابات عن بعض السلبيات التي رافقت هذه العملية، كنا نقول لهم إن ما حدث كان أقرب إلى ما يفعله أهل بيت انتقلوا إلى منزل جديد، فأنزلوا أحمالهم كيفما اتفق وفي نيتهم أن يرتبوا كل شيء مجددا حالما يتاح لهم الوقت.

((أعتقد أن الوقت قد حان لإعادة ترتيب الهياكل الإدارية والتنفيذية في الوزارات والدوائر المختلفة.

((إن وزاراتنا وأجهزتنا تشكو، لا من البطالة المقتعة وحسب، ولكن من الاكتظاظ العشوائي ومن عدم معرفة الموظف مهامه الوظيفية وبالتالي من تنازع الاختصاصات بين الموظفين - لاسيما موظفي الطبقة العليا - ناهيك عن عدم التنسيق بين اختصاصات الوزارات بحيث شهدنا حالات تنازع إداري، لا بين موظفين أفراد وحسب بل بين وزارات بأكملها. وعدا عن هذه الفوضى تحدث الناس عن وقائع محسوبة ومحاباة واستغلال نفوذ وعن فساد ورشاوى، وهو ما يحتاج إلى تحقيقات إدارية وأحيانا قضائية. ولا بد أن هيئة الرقابة العامة لديها وقائع عديدة في هذه المسائل.

الثورة الإدارية والعصر:

((مقصدي الآن أن أقترح تضمين البيان الوزاري فقرة معينة تجسد اتجاه القيادة إلى إصلاح إداري جذري، وذلك بتشكيل لجنة خبراء ممتازين في الإدارة لتقوم بمهمتين:

((الأولى - تصميم هيكل مقترح لإدارات وأقسام ومجالس كل وزارة أو هيئة حكومية وفقا للحاجات الشاملة للسلطة والمجتمع، لا وفقا لعدد المدراء والوكلاء الموجودين والقوة البشرية الموجودة.

((الثانية - بيان الحدود التي تحدد اختصاص كل وزارة لدى تقاطع أعمال الوزارات المختلفة و شبيهة اختلاط الاختصاصات:

((وذلك كله تمهيدا لإعادة تشكيل وإعادة تنظيم أجهزتنا الإدارية لضمان كفاءتها ومسايرتها للعصر، لأن الثورة الإدارية ملمح من أبرز ملامح العصر. والإنسان الفلسطيني، الذي يتسم بأنه إنسان جوال، يريد أن يرى في الإدارات والمصالح الحكومية التابعة للسلطة الوطنية والوطن الفلسطيني مثل ما يراه في أرجاء العالم.

((أعرف أن هذا العمل يحتاج إلى وقت، وأعلم أيضا أن اعتبارات الكفاءة والإنجاز توزن عادة في رزمة واحدة مع الاعتبارات العملية والسياسية، ولكن هناك شرط الحد الأدنى للكفاءة والإنجاز وتسهيل مصالح ومعاملات الناس.

((فالإنسان الفلسطيني يرى في علم البلاد وفي المجلس وفي الرئيس رموزا وطنية يعتز بها، ولكنه حين يحتك بالسلطة فإنما يكون ذلك بالدوائر الحكومية في حياته اليومية. وهذا الاحتكاك هو الذي يرسخ اعتزازه بالسلطة وبالوطن أو يخلخل ثقته بالسلطة وبالوطن.

((نقطة ثانية: أعتقد ان على السلطة الوطنية الفلسطينية أن تشرع فورا في إنشاء مؤسسة مستقلة لشؤون الاستثمار والمستثمرين.. مؤسسة مستحدثة بأكملها.. أعني بموظفيها وبأنظمتها وبسلطاتها، وحتى بمبانيها، بحيث لا يقف الروتين أو عوامل القصور الأخرى دون هذه المصلحة الحيوية التي لا تغني عنها

الدول المانحة ولا غيرها من المصادر الخارجية.

((نقطة ثالثة: ولا أدري إن كانت إدارية محضة أو أنها شيء آخر، وهي تعدد الأجهزة الأمنية وافتقاد التنسيق بينها. وهو أمر خطير لأن نتيجته هي الإساءة إلى الطمأنينة العامة بدلا من صيانة الأمن العام. ومن الواجب تقليص هذه التعددية وتعزيز التنسيق وتقويم النزعة الموجودة لدى البعض بجعل الجهاز دولة داخل الدولة تسودها عقلية التنافس التناحري مع الأجهزة الأخرى.))

* * *

كم من مياه جرت تحت الجسور منذ ذلك اليوم. وكم من مصائب اشتمل عليها أداء السلطة دون أن تتوقف الأمور عند حد، وقد ترددنا طوال الوقت بين اعتبارين: أولهما أن الإصلاح لابد منه لمواجهة الصراع مع العدو وثانيهما أن احتدام الصراع يوجب التمهل في إثارة القضايا الداخلية. لكننا الآن وقد انفتحت السيرة جعلنا من هذه المقالة التمهيديّة مقدّمة لمقالة الأسبوع القادم عن الإصلاح والتغيير المطلوبين، ولو أننا نقبع تحت الحصار في انتظار الجريمة الكبيرة.

